# الإعجاز البلاغي بين أبي سليمان الخطابي وعبد القاهر الجرجاني

إعداد

**أ. د. عبد السلام حمدان اللوح**
أستاذ التفسير وعلوم القرآن - كلية أصول الدين
الجامعة الإسلامية بغزة

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

**بسم الله الرحمن الرحيم**

الحمد لله الذي أنزل على عبده كتابا معجزا ببلاغته وحسن بيانه، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على من أوتي جوامع الكلم، وعلى آله وصحبه والتابعين بإحسان إلى يوم الدين، وبعد.

فإن الله قد تحدى العرب بما اشتهروا به، حيث كانوا فرسان البلاغة والفصاحة والبيان، وهذه سنة الله مع أنبيائه ورسله، فقد أرسل الله موسى عليه السلام بمعجزة تشبه السحر وليست بسحر، ولذلك كان أوّل من آمن به هم السحرة؛ لأنهم أدركوا الفارق بين سحرهم وبين معجزة موسى عليه السلام الخارقة للعادة، حيث تنقلب العصا إنقلاباً حقيقياً إلى حية تسعى، وهذا عيسى عليه السلام لمّا اشتهر أهل زمانه بالطب، أرسله سبحانه بمعجزة تشبه الطب، وليست بطب في حقيقتها، وذلك ليقيم الحجة على مَنْ أرسل إليهم، ولا يقولوا لا علم لنا بما تتحدانا به.

ولذلك فإن العرب زمن نزول القرآن دلت أقوالهم وأحوالهم على أن القرآن معجز بما فيه من بلاغة وحسن بيان، ولكنهم أبوا إلا الكبر والعناد والتمسك بموروثات الآباء والأجداد، وقد أخبر الله عنهم بقوله: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ**﴾ [النمل:١٤].

ومع ذلك قد ذهبوا إلى التقول على القرآن وعلى رسول الله ﷺ بأنه ساحر، ومرة قالوا شاعر، وأخرى قالوا مجنون، وقالوا بأنه أساطير الأولين اكتتبها، وقالوا إنما يعلمه بشر، وقالوا إنه إفك مفترى، وقالوا إنه أضغاث أحلام إلى غير ذلك من الأكاذيب والأباطيل.

وقد كان أكابر المشركين يسترقون الاستماع إلى القرآن إعجاباً ببلاغته وفصاحته وبيانه، فالأمر فاق ما عرفوه وألفوه، بل أعجزهم مجتمعين عن المجيء بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، فالبلاغة القرآنية هي التي أعجزتهم وقهرتهم عن معارضة القرآن بأي سورة من سوره، وليس المعجز شيئا آخر غير هذه البلاغة والفصاحة البيان.

وقد كان العلماء المسلمون الأوائل يقرون ويقولون بهذا الوجه الأوحد، ولكن لما جاء عصر المتكلمين، وترجمت كتب الفلسفة، عندها كثر الجدال، وكثر القيل والقال، وجاءت أقوال المعتزلة وغيرهم من المتكلمين وأضافوا وجوهاً مبتدعة؛ كالصرفة وغيرها ما أنزل الله بها من سلطان.

وحديثنا في هذه الورقة مع عالمين جليلين، أحدهما هو أبو سليمان الخطابي عاش في القرن الرابع الهجري، حيث توفي سنة ٣٨٨ه، والآخر هو الإمام عبدالقاهر الجرجاني، عاش في القرن الخامس الهجري، حيث توفي سنة ٤٧١ه.

وقد عايشتهما بما يزيد على ثلث قرن؛ أي: قرابة خمسة وثلاثين عاماً، والمعايشة لا يشترط فيها المعاصرة، حيث سبقوني بألف سنة، أو يزيد، وإنما كانت المعايشة من خلال دراسة ما كتبوه وتدريسه، والنظر بعمق في كل كلمةٍ تحدثوا بها لإدراك دلالتها والمراد بها.

فالخطابي رحمه الله قد صنف رسالته في الإعجاز أسماها (بيان إعجاز القرآن)، وأما الجرجاني رحمه الله فقد صنف رسالة في الإعجاز أسماها (الشافية)، وقد طبعت هاتان الرسالتان مع رسالة ثالثة لأبي الحسن الرماني اسمها (النكت في إعجاز القرآن)، وقد جمع هذه الرسائل الثلاث كتاب بعنوان (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، وأضاف الجرجاني كتاباً في الإعجاز بعنوان (دلائل الإعجاز في علم المعاني).

أما الخطابي فقد تحدث عن الإعجاز البلاغي حديثاً ممتعاً وجامعاً مانعاً، حيث قال: إن الخلق قد عجزوا عن الإتيان بمثل هذا القرآن لأمور ثلاثة وهي:

أولاً: إن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها.

ثانياً: لا تدرك أفهامهم جميع الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ.

ثالثاً: لا تكتمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم التي يكون بها ائتلافها وارتباط بعضها ببعض.

وذلك حيث يقول: "وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة، لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها، فتفهم الآن واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف، مضمناً أصح المعاني"(١)

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص ٢٤.

وبهذا تدرك أنه قد أكد على وجه الإعجاز بالبلاغة المتمثلة في اللفظ والنظم والمعنى، فهي أركان تمثل المثلية الكاملة المتحدى بها في كل آيات التحدي بلا استثناء، فلا يجوز أن نأتي بألفاظ فقط وتقول هذا وجه الإعجاز، ولا أن نأتي بالمعنى وحده وتقول هذا وجه الإعجاز، ولا أن تأتي بالنظم وحده وتقول هذا وجه الإعجاز، وإنما يكون وجه الإعجاز باجتماع هذه الأركان الثلاثة دون انفصال بينها.

ولذلك نجد أبا سليمان الخطابي قد رفض وجوهاً قال بها بعض العلماء ولم يرتضها وجوهاً معجزة كالصرفة، والقول بالإخبار بالغيب، ويبرر رفض الإخبار بالغيب بأنها غير موجودة في كل سورة من سور القرآن بلا استثناء، حيث جعل الله كل سورة معجزة قائمة بنفسها، حيث وقع بها التحدي، وقد وُجدت أخبار غيبية في الكتب السماوية السابقة، ولم تكن معجزة لا بهذا الوجه ولا بغيره.

فالمثلية المتحدى بها إذن هي (اللفظ والنظم والمعنى) مجتمعة كما يرى ويقرر الخطابي وهذا تحديد جامع مانع مقنع، آثر فيه الحذر والحيطة من التوسع في وجوه الإعجاز ببعض هذه الأركان دون بعضها الآخر.

ولذا فقد اجتهدت في وضع شروط أو أركان للوجه المعجز متمثلة فيما يأتي:

أولاً: أن يقع به التحدي.

ثانياً: أن يمثل علة العجز من معارضة القرآن بمثله.

ثالثاً: أن يحقق المثلية الكاملة المتحدى بها وهي (اللفظ والنظم والمعنى).

رابعاً: أن يوجد الوجه المعجز في كل سورة من سور القرآن بلا استثناء.

وعليه يمكن تعريف الوجه المعجز بأنه: (ما وقع به التحدي، ومثل علة العجز عن المعارضة، وحقق المثلية الكاملة التي وقع بها التحدي، وهو موجود في كل سورة بلا استثناء).

وإذا طبقنا هذا التعريف بأركانه على كثير من وجوه الإعجاز التي قال بها العلماء قديماً وحديثاً نجد أنها تخرج عن كونها وجوهاً معجزة، لتصبح إما أدلة على صدق الوحي والنبوة، أو أدلة على إثبات الإعجاز، أو تمثل شروطاً للإعجاز أو المعجزة، وقد وضعت في أحد بحوثي ضوابط تأصيلية وحدوداً لكل من هذه الأمور المتشابهة في الظاهر، المختلفة في الحقيقة والواقع.

أما الإمام عبدالقاهر الجرجاني فقد أثبت في رسالته الشافية أن القرآن معجز فقط بدليلين رئيسين، وهما دلالة أقوال العرب، ودلالة أحوالهم، ولم يضمِّن رسالته شيئاً عن وجوه الإعجاز البتة، وهو بذلك قد فرّق بين أمرين خلط بينهما كثير من العلماء وهما إثبات الإعجاز، ووجه الإعجاز.

أما حديثه عن وجه الإعجاز فقد جعله في كتابه (دلائل الإعجاز في علم المعاني) وقد اعتبر أن الوجه الوحيد للإعجاز القرآني هو النظم، وهو يتزعم هذا الرأي، ويتحدى به مَنْ خالفه، فنراه يقول شعراً يعلن فيه رأيه بوضوح؛ يقول:

إني أقول مقالاً لست أخفيه ولست ارهب خصماً إن بدا فيه
ما من سبيل إلى إثبات معجزة في النظم إلا بما أصبحت مبديه

ولذا فقد اشتهر الجرجاني بنظرية النظم عبر التاريخ، فإذا ذكر النظم يُذكر معه الإمام الجرجاني، وقد تناول العلماء هذه النظرية بالدارسة والتحليل جيلاً بعد جيل إلى يومنا هذا.

وإن الألفاظ المعجزة عند الجرجاني لا ميزة لها في التفاضل إلا من خلال نظمها، وذلك حيث يقول: "إن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلمٌ مفردة، وإن الألفاظ ثبت لها الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة معنى التي قبلها، أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ".(١)

وبهذا ندرك أن الإمام الجرجاني كان دقيقاً جداً في تحديد العلة التي أعجزت الخلق جميعاً عبر معارضة القرآن بمثله، فهو لم يقل بالبلاغة على إطلاقها، وإنما خص النظم منها دون سواه، وهو لا يخشى أحداً يخالفه الرأي، لأنه يعني ما يقول، وواثق مما يقول، فيرحمه الله، ويرحم أمثاله من أهل التحقيق والتأصيل، الذين يعتمدون على الحجة والبرهان، لا على العاطفة والوجدان.

**كاتبه**
**أ. د. عبدالسلام حمدان اللوح**
**أستاذ التفسير وعلوم القرآن**
**بكلية أصول الدين بالجامعة الإسلامية بغزة**

(١) دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص ٣٢.